فامنن بنفس لم يشبها الأسى لعلها تعرف طعم الهناء
تمثلي ان شئت في منظر ياجوليا انكر فيه الغرام
او فابعثي قلباً الى اضلع راح به الوجد واودى السقام
غُضّي جفون السحر او فارحمي متيماً يخشى نزال الجنون
ولا تصولي بالقوام الذي تميس فيه يا مناي المنون
اني لأدري منك معنى الهوى ياجوليا والناس لا يعرفون

الباب الثاني في التعليم

﴿ الباب الثاني (الولد) من كتاب اميل القرن التاسع عشر ﴾

(٢١) من هيلانه الى اراسم في دسمبر سنة — ١٨٥

كتبت للحكومة ثلاث مرات استطلعها شيئاً من اخبارك فصدر في كل واحدة منها امر رسمي باجابتي انك بخير وذلك تهكم وسخرية.

أنا لا اطيق هذا السكوت الذي طال امده بيننا ثمانية عشر شهراً فانه قد امضّني واحرج صدري ولكني ارائي قد اهتديت الى حيلة لايصال مكاتيبي اليك سنرى حتماً ما يكون من نجاحها وسواء عليّ افلحت فيها ام لم افلح فاني لن آلو جهداً في ملازمة جدران سجنك ومحاصرتها على النحو الذي اعرفه.

انقضت كل هذه المدة ولا سلوان لي عن همي الا في «اميل». أوّه انى لأبذل انفس ما عندي لمن يأتيني بك الساعة لتراه يغدو ويروح في البستان مكشوف الساقين الى نصفها عاري الذراعين مرسل الشعر

فان شهر دسمبر هنا كما اخبرتك فيما سبق غاية فى اعتدال الاقليم ويقول صديقك الدكتور ان شدة اعضاء الاطفال وتقويتها بتعريضها لهواء الجو يعود بالفائدة عليهم فى ابدانهم . ثم اعلم ان «اميل» غلام متعب فانه كلف بلمس كل شيء يقع بصره عليه فهل ينبغي منه من ذلك ؛ وليتك ترى ما يحدثه كل يوم فى البستان من ضروب الاتلاف التى كان قويدون فى بداية الامر يتوجع منها ويشكو . فلما اعيته الحيل انتهى بالضحك عجزاً ويأساً . ذلك لان ولدك له فى الاشتغال طرق شتى هو مخصوص بها فهو يقلب الارض بمقلب صغير من الخشب ويغرس الاشجار (أستغفر الله) بل اظنه يبني ايضاً ولعلك تقول انه يبني له قصوراً فى اسبانيا[1] كلا وانما هو يقيم بالحصى منارات وكهوفاً ثم ان الذى يضحكني ويسليني منه انه يسمى تلك الألاعيب شغلا وهي تسمية تشير الى ان الاطفال مجبولون على تعظيم اعمالهم في انفسهم وتقديرها باكثر من قيمتها . على ان ما يصدر عن سذاجتهم وسلامة طباعهم من انواع هذا التقدير ليس بجملته باطلا بطلاناً تاماً فان ثمرة البلوط مثلا اذا سقطت على الارض من يد صبي صغير لم يحسن القبض عليها لا يناقى ذلك ان تصير يوماً ما شجرة عظيمة (فكيف اذا هو غرسها فى الارض) اهـ .

(٢٢) من هيلانه الى اراسم فى ١٢ يناير سنة — ١٨٥

قد اتخذ «اميل» له خليلة ولهذه المناسبة ينبغي ان اقص عليك حادثة وقعت عندنا فارتعنا جميعاً بسببها ارتياعاً عظيما . . ذلك ان قويدون لما كان قليل الثقة بشرطة الحكومات المتمدنة فى حفظ الانفس والاموال

(١) مثل يضربه الفرنساويون لمن يتشبث بالامانى الوهمية ويغتر بالخيالات الكاذبة

لما هو لاصق بذهنه من افكار متوحشي افريقيا قد عثر من حيث لا ادرى على كلبة ضخمة طويلة الا انها من اشد انواع الكلاب توحشاً فسميناها « الدبة » وهو اسم ينطبق عليها كمال الانطباق فى شعرها الاسود وقوتها العظيمة وغرائزها العدائية وقد وضعت منذ شهرين خمسة جراء تماثلها إلا أنها من حين ولادتها بدت عليها سمات الدمامة والبشاعة فأسكناها فى بيت الدجاج وكان من ورآء وضعها ان زاد توحشها الفطري بسبب حنوها الأمي كما يحصل ذلك غالباً من الحيوانات الضارية فقد تخيلت أن تخفي جراءها فى سقيفة كانت تحرس مداخلها وتمنعها بنفسها لظنها بلا ريب اننا نأخذها منها وقد كنت امرت بأن لا يدخل « اميل » بيت الدجاج بعد سكناها فيه لانى كنت اخشى عليه مقابلة هذا الحارس الجهنمي ولكن كيف السبيل الى ذلك وهو مع كونه لم يتجاوز التهادي فى مشيته يتسلل ويتدخل فى كل مكان . ففى عصر ذات يوم افتقدناه فى البيت والبستان فلم نجده فأرسلت قوبيدون فى طلبه ثم رأينا بيت الدجاج مفتوحاً فلم يبق فى نفوسنا ريب فى انه دخله ولكن ضاع بحثنا فيه سدى فأول خاطر مرّ بفكر الزنجي هو ان الكلبة افترسته وهو خاطر فيه ريح التوحش حقاً .

لم تكن دهشة قوبيدون بأقل من ذعره اذ دخل السقيفة مخاطراً بنفسه فراى « اميل » وقد رقد على الدّبة واخذ بأذنيها الطويلتين المتدليتين يجذبهما اليه . واكثر من هذا خروجا عن مألوف العادة وابعد منه عن معهودها ان ذلك الحيوان كان يتسامح له فيما كان يفعله به ويحتمل منه لجاجته فى محكه بشهامة وعلو نفس لا يتصف بهما الا الآخذون بطريقة

زينون[1] فلم يلبث فويدون ان فهم وهو مندهش ان الكلبة قد اتخذت « اميل » خليلا واكرمت وفادته فقبلته بين اولادها لكنها لم تمنح الزنجي شيئاً من هذه المراعاة لأنها لما رأته انشأت تهرّ وتكشر عن انيابها زجراً له فراى من الحزم الفرار من امامها فخرج داعياً « اميل » الى اللحاق به فتبعه جذلا مبتهجاً غافلا عما كان قد اقتحمه من الخطر . من هذا الحين انعقد التعارف بين « اميل » وبين الدبة وكأنها توهمته جرواً صغيراً لم تحسن امه لحسه فكانت من أجل ذلك تعتبره ممن تجب لهم حمايتها وتلحس ما انكشف من اعضائه بلسانها العريض وعلى كل حال قد ظهر لي انها حميدة المقاصد فلم يبق لي من موجب للخوف منها على ولدي .

لم يقتصر « اميل » على مصادقة الدبة بل ان له اصدقاء غيرها فجميع سكان بيت الدجاج معارفه ومن العجيب ان تراهم في غاية الائتلاف والوئام ولست اخفي عنك اني مهتمة بهذا العالم البيتي الصغير ومشتغلة بشأنه كل الاشتغال .

يوجد على القرب من بستاننا بركة فيها وشل (ماء قليل) يزداد بما ينصب فيها من ماء المطر المتحلب من سطوح المنازل فخطر ببالنا ان نضع فيها بطا وتعهد بذلك فويدون فاشترى ثلاث بطات من كفر مجاور لنا واصبحنا نتسلى برؤية ريشها الاخضر الجميل المثل لفلز المعادن ونبتهج بما تبديه لنا من ضروب المرح واللعب في الماء وبما تسمعنا من البطبطة

---

(١) هو المسمى بزينون السيتيومي نسبة الى سيتيوم مدينة في جزيرة قبرس ولد في سنة ٣٣٨ ومات في سنة ٢٦٠ قبل المسيح وهو صاحب مذهب مخصوص في الفلسفة اساسه الصبر على المكاره

وترينا من الائتلاف الصحيح الذي جمعتها وشائجه ولكن الزنجي لم يلبث ان لاحظ عدم التناسب والتلائم في تألف هذه الجماعة فانه وجد فيها ذكرين لأنثى واحدة مع ان البط على مايظهر يميل الى تعدد الزوجات على نحو ماعليه الترك بتزوج السلطان الواحد كثيراً من النساء فمن اجل مداواة هذه العلة التي جزم قوبيدون بمخالفتها لمقتضى الفطرة (١) قد اشترى زوجاً آخر من هذا النوع بعد ان تأكد هذه الدفعة من انوثته وتحراها كما ينبغي وبذلك اصلح الخطأ الاول بعض الاصلاح وبقي امر ما كان يخطر لنا على بال قبل شراء هذا الزوج فانعكس فيه تقديرنا وخاب حسباننا وهو استقبال البطات القديمة لهذا الزوج فانها بمجرد ان رأته ولته ظهورها مصرة على مجانبته وكلما حاول القرب منها نهرته وأوسعته نقرا فاردنا التوسط في الصلح بين الفريقين فلم يجد ذلك نفعا لاننا ما كدنا نفارقهما حتى عقدت الثلاث القديمات مجلساً للشورى بينها بمعزل عن الحديثتين وانشأن يبطبطن طويلا ولم اعرف مادار بينهن من التداول والتشاور بنصه لعدم معرفتي لسانهن ولكن معناه كان ظاهراً فكأنهن كن يقلن « اننا قد سكنا هذا المكان قبلها ولنا الحق من اجل ذلك ان نعتبرهما دخيلتين فاجدر بنا ان نشوى على السفود شيئاً او ان نجهز باللفت طعاماً للآكلين من ان نقبلها في جماعتنا فنحن بط واما هما فليستا الا من السقط »

لما لاحظ قوبيدون ان احد افراد هذه الجماعة وهو ذكر ابيض ذو

(١) يدل هذا القول على جهل الاوربيين بحال المسلمين وقول قوبيدون ان التعدد مخالف للفطرة انما سرى اليه من سيدته وامثالها فغفل عن الفطرة في قومه وفي البط وانما هي فطرة اراد الانسان المدني تهذيبها

فنزعة طويلة كان اشدها لحاجة فى النفور صمم على ذبحه على نصب الوفاق فداء للاتحاد والتآلف فلما فعل انتج هذا القربان مع اسفي عليه اثره المطلوب فأخذ كل فريق يتدرج فى التقرب من الآخر حتى انتهيا بان صارا جماعة واحدة وان كانت البطة القديمة هى السلطانة الحظية . فما رأيك فى ذلك الشمم والترفع فى هذا الجنس الحيوانى اترى ان الميل للسؤدد والشرف هو الاصل الثابت فى الفطرة وان المساواة بالمعنى الذى نفهمه منها امر عارض عليها اكتسبه الانسان بالعدل

لو شئت لقصصت عليك أيضاً وقائع كثيرة فى عوائد الحمام واخلاقه هى بالنسبة الينا جديدة . فقد تبين لى من النظر فى معيشته فى برجنا ان اموره لا تجرى تماماً على ما تصفه الكتب من جعله فى الجملة مثالاً للصداقة والوفاء بعقد الزوجية لانى رأيت ذكراً عتيقاً متزوجاً بحمامة فتية كان حظه معها حظ اولئك الشيوخ الضعاف الذين تمثل الروايات الهزلية خضوعهم وتسليمهم قيادهم لمن يخالطونهم . فتركته فى يوم من الايام واستبدلت به ذكراً فتياً متصلقاً استمالها منه بلا ريب رقيق كلامه وجميل تحيته وسلامه وكأنى بك تقول أى الزوجين كان مخطئاً الزوجة لانها طائشة وسريعة التحول والانقلاب أم الزوج لانه اغفلها ولم يراعها كما ينبغى فاجيبك انه ينبغى الحذر من المجازفة فى الاحكام على غير علم ومن اجل ذلك فانا قبل كل شىء امسك عن الحكم واقول ان الزوج المخون على كل حال قد تلقى سقوط حرمته بلا نفس يدل على الشجاعة الحقيقية فكان اذا اتفقت مقابلته لزوجته الخائنة فى طريق يمر بجوارها بدون ان يظهر عليه انه رآها وان يبدى أقل امارة على حنقه عليها الا انه لم يكن البتة على هذا التسامح مع من اغتصبها

منه لانهما عندما كانا يتقابلان كانا يتبادلان النقر الاليم الوقع كما كان منيلاس وباريس يتبادلان الطعن والضرب فى حومة الوغى (١) ولما قضت الحمامة المطلقة زمن العشق وحان وقت الحضانة على البيض لم تحسنها لانها ورفيقها كانا من فرط اشغالهما بدواعى الحب بحيث لم يكن ليتيسر لهما ان يكثرا من التفكر فى فروض البيت ولم تعزب هذه الحالة عن ذهن الزوج المهجور فاننا رأيناه ذات يوم يخرجهما من احدى المحاضن حيث كانا مشتغلين بتربية افراخهما وهما والحق يقال ما كانا يأتيان بها على وجهها وكأنه كان يقول لهما وقت اخراجهما « أفّاً عليكما انتما لا تعرفان من التربية شيأً فخليا مكانكما » فلم يكن الا ان خلياه بعد مقاومة ضعيفة وجعل هو يحسن العناية بشأن ادعيائه وسمة الظفر والفخر بادية على وجهه . فنبهت فكرى هذه السيرة الشريفة الى امر من المحتمل ان يكون هو سبب شقائه بزوجته وهو ان صفة الابوّة فيه غالبة على صفة الزوجية

« اميل » كما لا يعزب عن فكرك يجهل كل هذه الاعتبارات المختلفة التى لاحظتها فى معيشة الطيور وبودّى انه لا يفهم كل ما فيها وانما الذى اعجب به هو ما استقر بينه وبين معظم سكان بيت الدجاج من الالفة والارتباط . هذا واننا كثيراً ما تساءلنا عن السبب فى ان تأنيس الحيوانات كاد ينقطع من عهد ان وجدت المجتمعات المدنية . لا شك فى ان علته ذلك ليست هى اعواز الحيوانات المتوحشة فان فى الصحراء كثيراً من

(١) منيلاس هو ابن اتريه واخو آغا ممنون صار ملكاً لاسبارطة بتزوجه بهيلانه بنت بندار وباريس هو ابن بريام وعقيبه وكان السبب فى انتشاب حرب تروادة الشهيرة بخطفه هيلانه زوجة منيلاس ملك اسبارطه وقتل فى هذه الحرب اشيل وقتل هو ايضاً بسيف بيروس

انواعها النافعة التى يكون من فائدتنا الظفر بها لو زال المانع من ذلك فاذا كان الامر كما اقول الا يكون السبب فى وشك انقطاع التأنيس هو كون الانسان فى عصرنا الحاضر لم يبق فيه من سذاجة الفطرة ما يكفي لثقة الحيوانات المتوحشة به وان صفات الطفولية هى اللازمة لذلك

البدع والخرافات
والتقاليد والعادات

﴿ قسم الاحاديث الموضوعة ﴾

« العلم والعلماء »

من الجليّ الظاهر ان وضاع الحديث من صنف العلماء وقد وضعوا احاديث كثيرة لتعظيم شأن انفسهم ليعظمهم الناس ويعتقدون تفوقهم واستملاءهم ثم استنبطوا فروعاً فقهية فى هذا التعظيم لانفسهم انتهى بهم الغلوّ فيها الى ان حكموا بالكفر على من يهين احداً من العلماء حتى قال بعضهم من قال لبابوج العالم بوبيج كفر اى من صغر المذآء المضاف اليه فى اللفظ يكفر حتى كأنه اشرك بالله واعتقد ان لاحد غيره سلطة غيبية يضرّ بها وينفع ويتصرف فى الاكوان فيما وراء الاسباب بل كثيراً ما يتساهل المتساهلون فى جزئيات من مثل هذا ويروّجونها بالتأويل ولا يتساهلون فيما يمس اشخاصهم او منافعهم ولا اعني بهذه المقدمة ان اهانة العلماء جائزة حاشا لله أن اجيز اهانة من دونهم ولكنى انكر على الغالين